الدور السياسي للصحابي عبدالله بن عباس ﷺ 3ق.هـ - 68هـ/619-688م
قراءة تاريخية

فتحي يوسف الشواورة
قسم الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل
الأحساء، المملكة العربية السعودية

الملخص
تناولت هذه الدراسة سيرة الصحابي عبدالله بن عباس ﷺ من الناحية السياسية، ودوره السياسي في الأحداث التي عاصرها، وحاولت الدراسة تحليل وفهم المواقف التي تبناها إزاء الأطراف السياسية ذات العلاقة في عهد الخليفة علي ﷺ. كما تعرض البحث إلى موقفه من الدولة الأموية بعد قيامها وكيفية تعامله معها ومع الحركات السياسية المعارضة لها.
وتوصلت الدراسة إلى أن ابن عباس ﷺ كان يتمتع بمجموعة من الصفات السياسية المهمة؛ منها التفكير والتحليل السليم الذي مكّنه من قراءة الواقع وفهم الأمور فهمًا عميقًا؛ ومن الشواهد على ذلك أنه تعامل مع الدولة الأموية كمرحلة واقعية في حياة الأُمة؛ فبايع معاوية ﷺ واشترك معه في مُحاولة فتح القسطنطينية تحت قيادة ابنه يزيد، ولكنه في الوقت ذاته اعترض على تحويل الخلافة إلى مُلك وراثي، ولما أيقن ابن عباس أن تولية يزيد واقعة لا محالة بايعه ولم يشق عصا الطاعة؛ لأنه رأى في ذلك مصلحة للأُمة وحقنًا لدماء المسلمين. كما أن ابن عباس ﷺ أشفق على الحسين ﷺ ونصحه بعدم الخروج إلى الكوفة وبالتوجه إلى اليمن، وكان لابن عباس ﷺ موقفه الصارم من ابن الزبير، فأبى أن يُبايعه بعدما بايع يزيد، وكان من نتائج ذلك أنه توفي ﷺ منفيًّا في الطائف.

الكلمات المفتاحية: الخوارج، موقعة الجمل، موقعة صفين.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى إله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فقد بعث الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم بإذنه إلى صراط مستقيم، وقد قام ﷺ برسالة ربه أتمَّ قيام، وبلَّغها إلى الناس أحسن تبليغ، ونصح الأُمة أبلغ نصيحة، ولم يتوقف حتى أكمل الله سبحانه وتعالى به الدين، كما قال الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

وترك أُمته على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ومضى الخلفاء الراشدون على ما كان عليه الرسول ﷺ، وهم في ذلك بنبيهم مقتدون، وعلى منهاجه سالكون.

ولم يؤثر عن صحابة رسول الله ﷺ أي افتراق في شيء من أمور العقيدة، بل كانوا جميعًا على منهج واحد، وسبيل واضح، هو ما تركهم عليه رسول الله ﷺ، وأود أن أُبين أن هؤلاء الصحب الكرام ﷺ على ما قال فيهم رسول الله ﷺ: «النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أُمتي ما يوعدون»[2]. وقال فيهم رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه»[3]، وقال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم من بعد ذلك تسبق أيمانهم شهاداتهم وشهاداتهم أيمانهم»[4].

وقد امتدح رسول الله ﷺ صحابته ودعا لهم بالمغفرة، فالصحابة الكرام هم الذين خاضوا غمرات الموت في إعزاز دين الله وعلو كلمته، ما كلُّوا وما فتروا عن ذلك، وبعد وفاة الرسول الله ﷺ شمروا عن سواعدهم الشريفة بكل جد، ولم يُقصروا في الدعوة إلى الإسلام والذب عن حوزته، وحُب الصحابة جميعًا وموالاتهم والترضي عليهم

(1) سورة المائدة، آية 3.

(2) مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن النبي ﷺ أمان لأصحابه، ج4، ص1960، رقم 2531.

(3) البخاري، صحيح البخاري، رقم 2673؛ مسلم، صحيح مسلم، باب تحريم سب الصحابة، ج4، ص1967، رقم 2540.

(4) مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ج4، ص1963، رقم 2532؛ الترمذي، سنن الترمذي، رقم 3859

وذكرهم بالخير واجب على كل مسلم، فهم الذين كان لسان حالهم: «نحري دون نحرك يا رسول الله»، وقد توفي الرسول ﷺ وهو راضٍ عنهم.

وفي حُب الصحابة يقول ابن بطّة الحنبلي: «توقن بقلبك أن رجُلاً رأى النبي ﷺ وشاهده وآمن به واتبعه -ولو ساعة من نهاره- أفضل ممن لم يره ولم يُشاهده، ولو أتى بأعمال الجنة أجمعين، ثم الترحم على أصحاب رسول الله ﷺ صغيرهم وكبيرهم أولهم وآخرهم وذكر محاسنهم ونشر فضائلهم والاقتداء بهديهم والاقتفاء لآثارهم»[1].

وقال الإمام الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نُفرط في حُب أحد منهم ولا نذكرهم إلا بخير»، وقد ذكر ابن الصلاح في تفسير قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] أن المقصود بذلك هم أصحاب رسول الله ﷺ[3].

أراد الباحث ذكر ما تقدم ذكره ذلك لأن هذه الدراسة قد اختصت بابن عباس؛ ولكنها تعرضت بصورة أو بأُخرى لذكر صحابة آخرين؛ وقد بذل الباحث جهدًا في محاولة رصد كيفية تعامل ابن عباس وغيره ممن له علاقة بتلك الأحداث السياسية.

وأُريد أن أُشير إلى أن هذه الدراسة ليست معنية بشخص ابن عباس كمُفسر أو مُحدث أو فقيه، وإنما برصد مُشاركاته في الحياة السياسية في عصر الخلفاء الراشدين، وإن الباحث لا يستدل بهذه السيرة استدلالاً شرعيًّا ليبني عليه أحكامًا فقهية، بل هي محاولة لدراسة أنشطته السياسية ومواقفه من الأحداث الدنيوية التي عاصرها والبحث عن الحقيقة التاريخية كما وقعت، فجميع الصحابة ﷺ اجتهدوا في الشؤون الدنيوية وهم غير معصومين عن الخطأ، وفي هذا السياق يقول السفاريني: «إن التخاصم الذي جرى بين الصحابة كان عن اجتهاد قد صدر من كل واحد من رؤوس الفريقين، ومقصد سائغ لكل فرقة.. وإن كان المصيب في ذلك الصواب واحدًا والمخطئ هو من نازعه وعاداه، غير أن للمخطئ في الاجتهاد أجرًا وثوابًا، خلافًا لأهل الجفاء والعناد فكل ما صح مما جرى بين الصحابة الكرام وجب حمله على وجه ينفي عنهم الذنوب»[4]، وحسبي في ذلك ما قاله معاوية ﷺ حينما وصل إليه خبر استشهاد أمير المؤمنين علي ﷺ حيث حزن وبكى بُكاءً شديدًا فسألته زوجته: كنت تقاتله في حياته وتبكي عليه الآن؟ فقال معاوية: «أنت لا تعلمين كم من الفقه، وكم من العلم فارق الدنيا بوفاته»[5]، وقد نقل ابن كثير أنه في موقعة صفين كان الفريقان يتحاربان في النهار، وفي الليل كان الجند من الفريقين يشتركون في تجهيز القتلى وتكفينهم[6].

أردتُ من ذلك أن أُبين أن الصحابة اختلفوا فيما بينهم على أساس من الاجتهاد في فهم أحداث دنيوية سياسية تعاطوا معها كل حسب اجتهاده، ولكنهم في الوقت ذاته لم يتجاوزوا ولم يختلفوا في الأصول الشرعية أبدًا.

وتنبع أهمية هذه الدراسة من كونها أول دراسة تناولت السيرة السياسية لعبدالله بن عباس بحدود اطلاعي، حيث إن هذا الصحابي الجليل دُرس كمفسر وكمحدث، وتطرق الباحثون إلى منهجه، في حين أني لم أعثر على أية دراسة علمية تناولت عنوان البحث. وقد قامت منهجية البحث على استقاء المعلومات من المصادر التاريخية المعتبرة، ثم جمعها وتحليلها وربطها وتدقيقها نحويا مع التحقق من صحة الروايات من خلال توثيقها في الهوامش، واحتوت الدراسة على توطئة وخاتمة ونتائج وقائمة للمراجع.

وقد بذل الباحث جهدا كبيرا استغرق أكثر من عام في جمع المادة العلمية من مصادرها الأولية لإخراج بحثه في هذه الصورة، وفي المنتهى أردد قول الله تعالى لرسوله في تبصير عباده حين قال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[7]. وصلِّ اللهم وسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

التعريف بعبدالله بن عباس

هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف[8]، وأمه هي لبابة بنت

(1) الزبيري، نسب قريش، ص26.
(2) سورة آل عمران، آية 110.
(3) ابن الصلاح، علوم الحديث، ص246.
(4) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ج2، ص385.
(5) شفيع، مقام الصحابة، ص114.
(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص400.
(7) سورة الإسراء، آية 53.
(8) الزبيري، نسب قريش، ص36؛ البلاذري، أنساب الأشراف،

الحارث[1] أخت الميمونة زوجة الرسول ﷺ، وقد أجمعت كثير من المصادر على أنه ولد قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة بثلاث سنين[2]، حيث ولد أثناء حصار النبي ﷺ وبني هاشم في الشِّعب، فجاء العباس بابنه عبدالله -رضي الله عنهما- إلى النبي الكريم فقال: يا رسول الله هذا عبدالله بن عباس فادع له، فقال الرسول ﷺ ومسح بيده: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[3].

صحب ابن عباس الرسول الكريم، وكان عمره عندما توفي الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة، ويروى أن الرسول دعا له بالحكمة، يقول ابن عباس: «دعا لي الرسول ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين»[4]. وأخرج الإمام البخاري -رحمه الله- عن ابن عباس أنه قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الحكمة»[5]. ويُذكر أن ابن عباس لازم الرسول ﷺ فكان يأذن له بالدخول عليه مع المهاجرين[6].

وقد وُصِف ابن عباس في المصادر بأنه كان فصيحًا، وكان الرسول ﷺ إذا رأى ابن عباس يقول: «أتاكم فتى قريش، له لسان سؤول وقلب عقول»[7].

صحب ابن عباس الرسول ﷺ نحوًا من ثلاثين شهرًا، ثم انتقل مع والديه من مكة إلى المدينة سنة فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وقد كان قبل ذلك من المستضعفين بمكة مع أُمه، ورُوي عن ابن عباس القول: «كنت أنا وأُمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأُمي من النساء»[8].

وكان لصحبة ابن عباس للرسول الكريم الأثر الأكبر في ثقافته وعلمه ﷺ وبركة دعوة الرسول ﷺ له؛ حيث دعا له الرسول ﷺ مرتين بالقول: «اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل»[9]. فكان ابن عباس ﷺ أعلم الناس بتفسير القرآن الكريم حتى سُمي ترجمان القرآن[10]، ولُقب أحيانًا البحر[11]، وأحيانًا أخرى الحَبر[12].

تنوعت العلوم التي نبغ فيها ابن عباس، فبالإضافة إلى علم التفسير نبغ في علوم أُخرى حيث وُصف مجلس ابن عباس بأنه يضم أصحاب الفقه وأصحاب القرآن وأصحاب الشعر يُجيب كل سائل عن مسألته، وقد برع ﷺ في علوم اللغة العربية والأنساب وأشعار العرب وتاريخهم، وقد امتاز بالذكاء والحكمة والرأي الصائب[13].

وقد وصِف بأنه: «فاق الناس بخصال عدة: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه، ولم يكن أحد أعلم منه بحديث الرسول ﷺ ولا أفقه منه برأي ولا أعلم منه بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة، وقد كان يجلس يومًا وما يذكر منه إلا الفقه ويومًا للتأويل ويومًا للمغازي ويومًا للشعر ويومًا لأيام العرب، وما رأيت عالمًا قط جلس إلا خضع له وما رأيت سائلاً سأله إلا

ج4، ص39؛ ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج1، ص66؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج1، ص379.

(1) ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص31، 32؛ ابن قتيبة، المعارف، 121؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص18؛ ياقوت، المقتضب من كتاب جمهرة النسب، ص29؛ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج1، ص258.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص39؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص173؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج17، ص231؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص325؛ العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، 330.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطهارة، باب وضع الماء ثم الخلاء، ج1، ص166، رقم 143؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص316؛ الزبيري، نسب قريش، ص26، مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص26.

(4) سنن الترمذي، المناقب، ج5، ص679، رقم 3823، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص365.

(5) البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ج7، ص100.

(6) الزبيري، نسب قريش، ص26.

(7) السهمي، تاريخ جرجان، ج1، ص483، رقم 971؛ البيهقي، المدخل إلى السنن الكبرى، ج11، ص291.

(8) البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ج7، ص100؛ الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص680؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص365.

(9) الطبراني، المعجم الكبير، ج1، ص237، رقم 10585؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص279؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص316.

(10) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج3، ص67؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص325؛ المكي، سمط النجوم العوالي، ج1، ص384.

(11) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص64؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج1، ص382؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص232.

(12) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص64؛ العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، ص333.

(13) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص1741؛ الدخيل، من أعلام الخلافة العباسية، ص11.

وجد عنده علمًا»[1].

كذلك عُرف عن ابن عباس ذكاؤه واستشرافه للمستقبل وحُسن التوقع وقراءة الواقع قراءة سليمة عميقة، حيث أورد الإمام الذهبي أن الخليفة علي ﷺ قال: «لله در ابن عباس إنه لينظر إلى الغيب من سِترٍ رقيق»[2].

ومما عرف عنه أيضًا اتصافه بالصبر على مشقة تحصيل العلم وتلقيه؛ حيث روي عنه في هذا السياق القول: «وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائمًا لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ وأسأله عما أريد ثم انصرف»[3].

وفيما يتعلق باجتهاده في البحث في العلوم الشرعية، فقد كان صاحب دراية وعلم؛ إذ قال معبرا عن ذلك: «كنت ألزم الأكابر من أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك وكنت لا آتي أحدًا منهم إلا سُرَّ بإتياني لقربي من رسول الله ﷺ، فجعلت أسأل أبي بن كعب يومًا -وكان من الراسخين في العلم- عما نزل من القرآن بالمدينة فقال: «نزل بها سبع وعشرون سورة وسائرها بمكة»[4].

أضف إلى ذلك أنه كان صاحب ثقافة لغوية واسعة؛ فقد ذكرت إحدى الدراسات الحديثة أن جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام -وهو كتاب أدبي- يتضمن عشرات الأقوال لابن عباس في شرح بعض الكلمات لغويًّا[5].

أما صفاته الجسمية فقد كان جسيما إذا قعد يأخذ مكان رجلين، جميلا له وفرة، وقد شاب مقدم رأسه، وكان يخضب بالحناء، حسن الوجه يلبس حسنا ويكثر من التطيب، وكان وسيما طويلا أبيض صبيحا فصيحا[6].

سيرته في عهد الخلفاء الراشدين

كانت سِن ابن عباس عندما توفي الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة[7]، ولما تولى الخلافة أبو بكر الصديق ﷺ كان ابن عباس شابًّا حديث السن، غير أن أبا بكر قرَّبه منه وقدَّمه، ولما تولى الخليفة عمر ﷺ الخلافة قرَّبه منه واستشاره في شؤون القضاء[8]، وكان يسأله فيما يُشكل عليه في أمور الفتوى[9]، وكان من شِدَّة إعجاب عُمر ﷺ بعلم ابن عباس أن لقَّبه بفتى الكهول[10]، وفي رواية أُخرى كهل الفتيان[11]، وقد نُقل عن ابن عباس قوله: «كان عمر ﷺ يُدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ يُدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مثله فقال -عُمر- إنه ممن قد علمتم»[12].

يروي أبو نعيم الأصبهاني قولاً منسوبًا إلى ابن عباس ﷺ أن عمر ﷺ جلس في رهط من أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين فذكروا ليلة القدر فتكلم منهم من سمع فيها بشيء ما سمع فتراجع القوم في الكلام فقال عمر: ما بك يا ابن عباس صامت لا تتكلم؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة. قال ابن عباس: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله وتر، يحب الوتر فجعل أيام الدنيا تدور على سبع وخلق الإنسان من سبع وخلق أرزاقنا من سبع وخلق فوقنا سماوات سبعًا وخلق تحتنا أرضين سبعًا، وأعطى من المثاني سبعًا ونهى في كتابه عن نِكاح الأقربين عن سبع وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعًا وبين الصفا والمروة سبعًا، ورمى الجمار بسبع لإقامة ذكر الله تعالى مما ذكر في كتابه، فأراها في السبع الأواخر من رمضان والله أعلم، فتعجب عمر وقال: ما وافقني فيه أحد عن رسول الله ﷺ إلا هذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه»[13].

يُستفاد من هذه الرواية معانٍ عدة:

أولًا: أدب ابن عباس واحترامه للمجلس ومن هم فيه من الصحابة الأكبر منه سِنًّا فلم يكن ليتحدث إلا بإذن من الخليفة.

ثانيًا: شدة إعجاب الخليفة عمر بنباهة ونبوغ

(1) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج3، ص67-68.
(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص261.
(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5، ص365-366.
(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5، ص366؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص1379.
(5) الدخيل، من أعلام الخلافة العباسية، ص15.
(6) ابن الأثير، الكامل 3/ 1744.
(7) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج3، ص68؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص1737.
(8) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص279؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص45-47.
(9) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج3، ص68.
(10) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص318؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص299.
(11) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص51.
(12) المقريزي، النزاع والتخاصم، ص95.
(13) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص317.

ابن عباس على حداثة سنه.

ثالثًا: تشجيع الخليفة عمر ﷺ لابن عباس ﷺ على الحديث «تكلم ولا تمنعك حداثة سِنك».

وقد وصل إعجاب عمر بشخص ابن عباس وعلمه إلى حد أنه عرض عليه أن يتولى إمارة حمص ولكن ابن عباس رفض ذلك[1]. وفي هذا دلالة على أمور عِدة، منها أن ابن عباس كان يفضل التفرغ في مقتبل عمره للعلوم الشرعية وتحصيلها، إضافة إلى أن ابن عباس لم يكن مندفعًا للإمارة والسياسة وهو حديث السن، بل على العكس من ذلك كان متأنيًا رصينًا، ولم يكن شابًّا باحثًا عن المناصب السياسية متسرعًا للقبول فيها.

أما في عهد عثمان ﷺ (23-35هـ/ 643-655م)، فقد بلغ ابن عباس من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، فولاه القضاء وقربه منه[2]، وشارك غازيا في فتح إفريقية سنة 26هـ/ 646م[3].

ولما أطلت الفتنة برأسها على مسرح تاريخ الإسلام في عهد عثمان ﷺ سنة 35هـ/ 655م، حاول ابن عباس حل المشكلة والقيام بدور الوساطة بين الطرفين، ولكن الخليفة عثمان أراح ابن عباس من ذلك العناء، فأرسله أميرًا على رأس قافلة الحج في ذلك العام؛ وذلك لأن الأوباش من ثوار الأمصار حاصروا دار عثمان ومنعوه من الخروج[4].

وهكذا كان قضاء الله وقدره جل جلاله في إبعاد ابن عباس عن المدينة المنورة إبَّان أحداث الفتنة، ما جعله نائيًا عن أية تُهمة قد تُوجه إليه من حِياد سلبي أو تواطؤ على دم الخليفة عثمان.

وما يهمنا في هذا السياق أن ابن عباس كان مقربًا من الخليفة عثمان حيث استعمله على القضاء وإمارة الحج، فقد أورد الذهبي قولاً منسوبًا إلى ابن عباس أنه قال: «استعملني عثمان على الحج فأقمت للناس الحج، ثم قدمت وقد قُتِل وبويع لعلي»[5].

موقفه من خلافة علي رضي الله عنهما

كان موقف عبدالله بن عباس من خلافة علي هو امتداد لموقف أبيه العباس بن عبدالمطلب الذي كان يفكر في أمر الخلافة لعلي بن أبي طالب قُبيل وفاة الرسول ﷺ.

يروي ابن سعد أن العباس طلب من علي أن يسأل الرسول ﷺ أثناء مرضه عن الخلافة من بعده، إذ قال له: اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فإن كان هذا الأمر فينا، وإلا أوصى بنا إلى الناس. ولكن علي رفض هذا الأمر وقال لعمه العباس: «لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدًا والله لا أسألها رسول الله ﷺ أبدًا»[6].

وقد ألح العباس ﷺ على علي ﷺ بطلب أمر الخلافة حيث قال لعلي: «إن رسول الله ﷺ مقبوض فامدد يدك أُبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ويبايعك أهل بيتك فإن هذا الأمر لا يُؤخَّر، فقال علي: يرحمك الله ومن يطلب هذا الأمر غيرنا يا عم»[7].

توفي رسول الله ﷺ وجرت مناقشات في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار نتج عنها مُبايعة أبي بكر الصديق ﷺ بالخلافة ثم كانت البيعة العامة في المسجد، فسمع علي التكبير في المسجد، فقال: ما هذا؟ فقال العباس: هذا ما دعوتك إليه فأبيت عليَّ، فقال علي: أيكون هذا؟ فقال العباس: ما يُرد مثل هذا قط[8].

إن هذه الدراسة ليست معنية بتفصيل أمر الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ولكني أردت التقديم لموقف ابن عباس من خلافة علي. وإن كان هذا المقام ليس مكانًا للتفصيل فإن المهم هو أن العباس بن عبدالمطلب كان متحمسًا لخلافة علي، وبقي العباس وأبناؤه مُسالمين مطيعين طيلة عهود الخلفاء الراشدين ﷺ.

أما عبدالله بن عباس فعندما بويع علي بن أبي طالب ﷺ بالخلافة كان أول من بايعه وآزره وناصره بحكم القرابة بينهما، وكان ناصحًا له في شؤون السياسة العامة، فقد أورد الذهبي أنه عندما عاد ابن عباس من موسم حج سنة

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص353.
(2) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج1، ص379؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص299.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص1740.
(4) خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ص104؛ البسوي، المعرفة والتاريخ، ج3، ص311؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص405؛ ابن الأثير، أُسد الغابة، ج3، ص195.
(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص261.
(6) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص193-194؛ ابن الأثير، أُسد الغابة، ج3، ص195.
(7) المقريزي، النزاع والتخاصم، ص75.
(8) المصدر نفسه، ص75.

35هـ/ 655م وجد أن عثمان قد قُتل وبايع الناس بعده عليًّا بالخلافة، فقال علي لابن عباس: «سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي معاوية ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان، وأدنى ما هو صانع أن يحبسني، قال علي: ولم؟ فقال ابن عباس: لقرابتي منك، وإن كل من حُمِل عليك، حُمِل عليَّ، ولكن اكتب لمعاوية فَمَنّه وعِدْه، فأبى علي وقال: لا والله لا كان هذا أبدًا»[1].

لقد كان فهم ابن عباس في هذه الحادثة أقرب إلى الواقع السياسي وأكثر فهمًا لمجريات الحالة السياسية آنذاك، فمعاوية متمكن من بلاد الشام وأهلها منذ عهد أبي بكر الصديق ﷺ (11-13هـ/ 631-634م) وبالتالي كان رأي ابن عباس صائبا في عدم عزله، لأن الأمور لم تستتب ولم تصف بعد في مطلع خلافة علي ﷺ.

وفي سنة 36هـ/ 656م عين علي ابن عمه عبدالله بن عباس واليًا على البصرة[2] فوقف عبدالله وأخوته أبناء العباس إلى جانب علي -رضي الله عنهم جميعًا- في جميع الأحداث السياسية التي تخللت خلافته وفي هذا استمرار لمسيرة والدهم العباس بن عبدالمطلب ﷺ كما بينا آنفًا في دعم ومؤازرة علي. وتقديرًا لهذا الموقف المساند والداعم من بني العباس فقد منحهم الخليفة علي ﷺ عددًا من المناصب الإدارية في عهده، فعين عبدالله واليًا على البصرة وجعله مسؤولا عن بيت المال والجند فيها[3]. أما عبيد الله بن عباس[4]، فقد عينه واليًا على اليمن[5]، في حين جعل إمارة مكة المكرمة لقثم بن عباس[6]، وعين تمام بن عباس واليًا على المدينة المنورة[7].

وقد لاقت هذه التعيينات معارضة من بعض أنصار علي ومؤيديه فيروى عن مالك بن الأشتر[8]، الذي كان من أبرز المناصرين لعلي أنه غضب من ذلك وقال: «علام قتلنا الشيخ يعني -عثمان- إذ اليمن لعبيد الله والحجاز لقثم والبصرة لعبدالله والكوفة لعلي»[9].

إنَّ صدور هذا القول من أقرب المناصرين لعلي يمثل انحرافًا في توجهات المحيطين به؛ فالخليفة علي ﷺ كان في وضع حرج لا يتيح له وأد أية فتنة أخرى قد تطفو على السطح بين مناصريه والمقربين منه، خاصة وأنه في ذروة النزاع والتخاصم السياسي مع معاوية ﷺ.

هكذا كان لسان حال كثير من الرجال المحيطين بعلي، يقولون: إذا كنا نحن ثوار الأمصار كالكوفة قد قتلنا الخليفة عثمان وهو شيخ طاعن في السن لأنه رفع من مكانة أقاربه من بني أمية وعينهم في أرفع مناصب الدولة وولَّى بعضهم على البلدان وترك باقي الناس. وها أنت ذا يا علي تحذو حذوه وتعين بني هاشم على البلدان، فما الفرق بينكما؟

وهنا لا بد للباحث من كلمة، فقد كان للخليفين الراشدين -رضي الله عنهما- ظروف متشابهة في سياق الأحداث السياسية؛ فعثمان عين من يثق بهم من أقاربه في وقت اضطربت فيه الأمصار، وكذا فعل علي في وقت جاء فيه إلى منصب الخلافة على إثر ثورة وفتنة عصفت بالأمة راح ضحيتها ذو النورين صهر رسول الله المبشَر بالجنة، فعين علي من يثق بولائه في وقت اختلطت فيه الأمور حتى أصبح فيه كبار الصحابة في حيرة من أمرهم فانقسموا إلى فريقين؛ فريق ناصر علي وفريق ناصر معاوية، حيث يذكر الذهبي أسماء الصحابة الذين وقفوا مع علي: عمار بن ياسر، وسهل بن حنيف، وخوّات بن جبير، وأبو

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص261.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص246؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص220.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص1742.
(4) هو عبيد الله بن عباس وكنيته أبو محمد، اتصف بالكرم والجود، عينه الخليفة علي واليًا على اليمن، توفي في المدينة المنورة في خلافة معاوية. للمزيد ينظر: الزبيري، نسب قريش، ص27؛ ابن قتيبة، المعارف، ص121.
(5) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص75 -84.
(6) اتصف قثم بن عباس بأنه كان يشبه رسول الله ﷺ وهو أخ غير شقيق للحسين بن علي (أخوه في الرضاعة) حيث أرضعت أم قثم الحسين معه، وقد شارك قثم في الجهاد في خراسان مع سعيد بن عثمان بن عفان، وتوفي قثم أثناء الفتوحات الإسلامية في سمرقند. ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص87.
(7) هو تمام بن عباس بن عبدالمطلب ويُكنى بأبي جعفر، وقد اتصف تمام بأنه شجاع مقدام ذو بطش وإقدام. ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص90.
(8) هو مالك بن الأشتر بن عبد يقوت النخعي، أمير من كبار الشجعان، كان سيد قومه، أدرك الجاهلية ثم أسلم، وسكن الكوفة، وشهد الجمل وصفين، وقد أرسله علي واليًا على مصر غير أنه استشهد وهو في طريقه إليها سنة 37هـ. ينظر: الزركلي، الأعلام، ج5، ص259.
(9) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص492.

سعد الساعدي، وأبو اليسر، ورفاعة بن رافع الأنصاري، وأبو أيوب الأنصاري، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقيس بن سعد بن عبادة، وأبو قتادة، وسهل بن سعد الساعدي، وقرظة بن كعب، وجابر بن عبدالله، وابن عباس، والحسن، والحسين، وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وأبو مسعود عقبة بن عمرو، وأبو عياش، وعدي بن حاتم، والأشعث بن قيس، وسليمان بن صرد، وجندب بن عبدالله، وجارية بن قدامة السعدي، رضي الله عنهم جميعا[1]. في حين وقف في صف معاوية من الصحابة: عمرو بن العاص السهمي، وابنه عبدالله، وفضالة بن عبيد الأنصاري، ومسلمة بن مخلد، والنعمان بن بشير، ومعاوية بن حديج الكندي، وأبو غادية الجهني قاتل عمار في صفين، وحبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمي، وبسر بن أرطأة، رضي الله عنهم جميعا[2].

كانت الأحوال السياسية والاجتماعية مضطربة مطلع خلافة علي حتى وقعت موقعة الجمل، التي أدى ابن عباس فيها دورًا بارزًا في الوساطة؛ ذلك لأن علاقة ابن عباس كانت طيبة مع جميع أطراف الخلاف؛ فقد كان على علاقة طيبة مع عائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ التي خالط ريقها ريقه ومات وهو راضٍ عنها، إذ كان ابن عباس دائم الزيارة لها، فقد زارها سنة 35هـ/ 655م في بيتها في المدينة المنورة وودعها قبل التوجه إلى موسم الحج في ذلك العام[3].

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة ليست معنية ببحث تفاصيل الفتنة والتباين في مواقف الصحابة -التي كانت مجرد اجتهادات كثير منها كان صائبًا- فإنه من المفيد في هذا المقام أن نشير إشارة عابرة إلى أن عبدالله بن عباس وعلى الرغم من أنه كان من المؤيدين لعلي ومن أشد المناصرين إليه، فإنه في الوقت ذاته كان على علاقة طيبة مع جميع الأطراف الأُخرى؛ ففي موقعة الجمل انتدبه الخليفة علي للتفاوض مع طلحة والزبير رضي الله عنهما[4]. كما زار عائشة رضي الله عنها في البصرة وسلم عليها وقعد عندها في دار عبدالله بن خلف، وعبَّر كل منهما عما أصابه من حزن وأسى لما أصاب الأُمة؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: «والله لوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة»[5]. كما تحدث مع الزبير ﷺ وقال له: «يا ابن صفية علام تقاتل قريبك عليًّا؟ فرجع الزبير عن القتال ولكن أحد الناس من الغوغاء عندما شاهده ينسحب من الموقعة رماه بسهم فقتله»[6].

موقفه من التحكيم بعد موقعة صفين

انتهت موقعة صفين[7] سنة 37هـ/ 657م[8]، باتفاق بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما- على التحكيم بين الطرفين، فاختار معاوية، عمرو بن العاص[9] ممثلاً عنه في التحكيم، في حين كان علي يفكر في اختيار ابن عباس ممثلاً له في التحكيم، ولكن الأمور لم تجرِ كما كان علي يخطط لها؛ إذ رفضت القبائل اليمانية ممن كانوا في صفوف جيشه هذا الاختيار، وكان يتزعم هذا التيار الرافض الأشعث بن قيس[10]؛ حيث رشح أبا موسى

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج3، ص266-267.
(2) المصدر نفسه، ج 3، ص268.
(3) المصدر نفسه، ج4، ص506.
(4) الدينوري، الأخبار الطوال، ص144؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص181-188؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج1، ص300؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ج5، ص211؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص83.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص220؛ صبرة والحناوي، دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين، ص312.
(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص259.
(7) هو المكان الذي وقعت فيه المعركة، وهو موضع بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي، بين الرقة وبالس. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص414.
(8) للتوسع في هذه الموقعة ينظر: خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ص116-118؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص563؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ج5، ص217؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص117؛ ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص89؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج7، ص281.
(9) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو محمد، أحد دُهاة العرب، وأولي الرأي والحزم والمكيدة، أسلم يوم صلح الحديبية في سنة 6هـ، وقد استعمله الرسول ﷺ على عُمان سنة 9هـ، وشارك في فتوح الشام وقنسرين ومصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فعينه واليًا على فلسطين ثم على مصر، ولكن عثمان بن عفان ﷺ عزله عن مصر، ثم أعاده معاوية واليًا عليها، وقد توفي عمرو بن العاص سنة 43هـ/ 663م. للمزيد ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج2، ص105؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص235-240.
(10) هو الأشعث بن قيس بن معدي بن كرب الكندي ولد قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة (600م)، وكان زعيم كندة في الجاهلية والإسلام، اتصف بأنه ذو رأي وإقدام وهيبة، وفد على الرسول ﷺ قادمًا من حضرموت وأسلم وشارك في حركة الفتوحات الإسلامية؛ حيث اشترك في

الأشعري[1] ممثلاً لعلي، وبعد حوار ونقاش خضع علي لرغبة الجماعة التي يبدو أنهم كانوا الكثرة في جيشه فاختار أبا موسى الأشعري ﷺ في التحكيم، رغم أن الخليفة علي لم يكن مقتنعًا بهذا الاختيار؛ حيث روي أن عليًّا ﷺ قال: «لست أثق برأي أبي موسى ولا بحزمه، ولكن أَجعلُ ذلك لعبدالله بن عباس»[2]. فقال اليمانية: «والله ما نفرق بينك وبين ابن عباس وكأنك تريد أن تكون أنت الحاكم، بل اجعله رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى أحد منكما بأدنى من الآخر»[3]. وهنا لا بد لي من كلمة توضيحية؛ إذ يستفاد من هذه المواقف:

أن التيار اليماني في جيش علي لم يكن واقعيًّا في هذا الطرح؛ فكيف كانوا يحلون لمعاوية اختيار من يمثله وهو عمرو بن العاص ولا يُحِلّون ذلك لعلي؟ ومن ناحية أُخرى يبدو في طرحهم تناقض شديد وهذا واضح وجلي في قولهم: «كأنك تريد أن تكون أنت الحاكم» فمن هو الحاكم من وجهة نظرهم إذًا؟! كما ينم عن مدى المعاناة والضيق الذي كان يعانيه علي ﷺ من أقرب المقربين إليه ممن هم في صفوف جيشه، في الوقت الذي كان فيه الصحابة في حيرة من أمرهم، ولذلك كانوا يريدون حكمًا عادلاً لإظهار الحق، وعندما أيقن ابن عباس من استحالة تعيينه ممثلاً لعلي في التحكيم أشار على الخليفة بتعيين الأحنف بن قيس[4] ممثلاً عنه ولكن القبائل اليمانية رفضت ذلك أيضًا، عند ذلك شعر ابن عباس على ما يبدو بخطورة الموقف فقال لعلي: «يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست بأرب بالحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول «الحرب خدعة» أما والله لأن أطعتني لأصدرن بهم بعد ورود ولأتركنهم في دبر الأرض لا يعرفون ما كان في وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم»[5]، ولكن الخليفة علي لم يكن باستطاعته السماع لنصيحة ابن عباس.

لقد كانت هذه الفترة عصيبة على الخليفة علي، فهو لم يستطع أن يقنع أتباعه بأن اختيارهم لأبي موسى الأشعري سيضر بالقضية، وفي الوقت ذاته كانت الفترة عصيبة على ابن عباس الذي حاول للمرة الأخيرة تنحية أبي موسى عن هذا الموقع الذي لم يكن أهلاً له من الناحية السياسية عندما أشار على جماعة علي من اليمانية باختيار الأحنف بن قيس[6].

وهكذا كان اختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً للخليفة أمرًا حاصلاً لا محالة، فأراد الخليفة أن يرمم الموقف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فأرسل مع أبي موسى أربعمائة رجل على رأسهم ابن عباس حتى يلي أمرهم ويصلي بهم[7].

ومن الجدير ذكره أن الاعتراض على أبي موسى الأشعري ﷺ لم يكن اعتراضًا على شخصه الكريم؛ بل كان لعدة أسباب، منها: أن عليًّا لم يكن ليثق بحزم أبي موسى هذا الرجل الذي يمتاز بالورع والتقوى ولكنه في الوقت ذاته لا يمتاز بالحزم وحسن السياسة في هذا الموقف، ولكل مقام مقال، وهذا لا يعني الطعن بشخص أبي موسى ﷺ بل إن الأمر يتعلق بدهاء عمرو بن العاص، الذي وصفه ابن عباس بأنه: «رجل حذِر فَرِس»[8] بمعنى أنه متفطن ولديه الفراسة والحذر.

لقد كان موقف علي بن أبي طالب يعبر عن عمق المعاناة التي يعانيها بين جماعته؛ حيث قال لابن عباس: «يا ابن عباس ما أصنع؟ إنما أوتى من أصحابي، قد ضعفت نيتهم، وكَلُّوا الحرب»[9].

معركة اليرموك، ولما توفي الرسول ﷺ امتنع عن دفع الزكاة في عهد أبي بكر الصديق، فقبض عليه وعفا عنه وزوجه الخليفة أبو بكر من أُخته أم فروة وأقام في المدينة ثم هجرها إلى الكوفة فأقام بها حتى توفي فيها سنة 40هـ/ 661م، ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج1، ص133-135.

(1) هو عبدالله بن قيس بن سليم ويُعرف بأبي موسى الأشعري، وأُمه ظبية بنت وهب بن علي، أسلم يوم فتح مكة وكان مع من هاجروا إلى الحبشة، وقدم على الرسول ﷺ وهو في خيبر، وقد اختلف في سنة وفاته فقيل سنة 42هـ، 44هـ، 52هـ. ينظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج1، ص284-287.

(2) الدينوري، الأخبار الطوال، ص192.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص51؛ ابن أعثم، الفتوح، ج2، ص193؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، ص247.

(4) هو الأحنف بن قيس، كان في جيش علي في الجمل وصفين، وقد عُرف عنه رجاحة العقل، أشار ابن عباس على الخليفة علي أن يُعينه ممثلاً له في التحكيم. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص269.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص441.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص269.

(7) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص190؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص67؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، 126.

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص548.

(9) المصدر نفسه، ص548.

توجه الطرفان للتحكيم في أذرح[1]، وكان علي وابن عباس يؤكدان لأبي موسى ضرورة توخي الحيطة والحذر، يروى أن ابن عباس حذر أبا موسى قائلاً: «احذر عمرًا فإنما يريد أن يقدمك ويقول: أنت صاحب رسول الله ﷺ وأسنُّ مني فكن حَذِرًا متدبرًا لكلامه»[2].

كان وجود ابن عباس في موقع التحكيم أمرًا مهمًّا لتوجيه النصح والإرشاد لأبي موسى من جهة، وللحد من كثرة الأهواء والآراء في جماعة علي، وقد واجه ابن عباس صعوبات كثيرة في هذا المقام حيث ذكر الطبري أنه: «كان إذا كتب إلى عمرو بن العاص جاء الرسول وذهب لا يُدرى بما جاء ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء، وإذا جاء رسول علي جاؤوا إلى ابن عباس فسألوه ما كتب به إليك أمير المؤمنين، فإن كتمهم ظنُّوا به الظنون فقالوا ما نراه كتب إلا بكذا وكذا، فقال ابن عباس: أما تعقلون؟! ما ترون رسول معاوية يجيء ولا يُعلم ما جاء به ويرجع لا يُعلم ما رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون»[3].

انتهى التحكيم بالصورة التي انتهى عليها، حيث عزل أبو موسى عليًّا ومعاوية، وقد انتقده ابن عباس وقال له: «أنت في خدعة ألم أقل لك لا تبدأه وتعقبه؟ فإني أخشى أن يكون أعطاك أمرًا خاليًا، ثم ينزع عنه على ملأ من الناس واجتماعهم، فقال أبو موسى: لا تخش فقد اجتمعنا واصطلحنا»[4]. صدق توقع ابن عباس وحدسه فقد نزع عمرو بن العاص عليًّا وثبت معاوية، فقال ابن عباس مُعلقًا: «قبَّح الله رأي أبي موسى حذرته وأمرته بالرأي فما عَقل»[5].

حَزِن أبو موسى مما أسفر عنه التحكيم وخلع علي وندم على ذلك فقد ورد عنه أنه قال: «حذرني ابن عباس ولكني اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئًا على نصيحة الأمة»[6]، وإذا كان هذا الندم في سياق السياسة غير مبرر لأن ابن عباس نصحه فإنه يمكن أن نجد عذرًا لأبي موسى في عبارة «نصيحة الأمة» فهذا هو المنطلق الذي انطلق منه ﷺ لحقن دماء المسلمين.

وعندما انتهى التحكيم بهذه الصورة بقيت الأزمة تتفاقم في صفوف جماعة علي، فعاد ابن عباس إلى البصرة واليًا عليها، وبدأ يحاول إصلاح الأمر وحسم الموقف لصالح علي حتى ظهر الخوارج[7] على مسرح الأحداث.

موقفه من الخوارج

الخوارج فرقة تنسب إلى قرية خرجوا منها يُقال لها حروراء[8]؛ ولذلك يسمون أحيانًا الحرورية. والخوارج لغةً: جمع خارج وخارجي مشتق من الخروج، وقد وضع علماء اللغة كلمة الخوارج في مادة خرج[9] معللين التسمية بخروجهم عن الدين أو على الإمام علي ﷺ أو لخروجهم على الناس. أما اصطلاحًا فقد عرفهم الشهرستاني بالقول: «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا»[10]. أما الأشعري فقد حدد تعريفهم في إطار حادثة التحكيم في عهد الخليفة علي بعد موقعة صفين فقال: «والسبب الذي سُمُّوا له خوارج؛ خروجهم على علي بن أبي طالب»[11].

(1) أذرح بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز، ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص129.
وقيل إن مكان التحكيم كان في دومة الجندل، وهي قرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيئ، كانت به كنانة من كلب، سُميت الجندل لأن حصنها بني بالجندل. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص487.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4، ص193.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص67؛ النويري، نهاية الأرب، ج20، ص156.

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4، ص194؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص190؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، ص248.

(5) الدينوري، الأخبار الطوال، ص201؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص128.

(6) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص72؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص128.

(7) الخوارج، هم قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص287.
ويُعرف الخوارج بأن كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة يسمى خارجًا. وأول الخوارج جماعة خرجت على علي بن أبي طالب ممن كانوا معه في صفين. وهم عدة فرق؛ منهم الأزارقة، والإباضية، والصفرية، والثعالبة. يُنظر: ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج1، ص154-159؛ الشهرستاني، الملل، ص114-146.

(8) حروراء: قرية تبعد عن الكوفة ميلين. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص245.

(9) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص249-251.

(10) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص115.

(11) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص157.

تكونت هذه الفرقة بسبب رفضها نتيجة التحكيم وقد كانت قضية التحكيم هي التي سببت خروجهم، ولا شك أن خروجهم كان إثر ذلك، ولكن المعروف أنهم هم الذين أجبروا عليًّا على قبول التحكيم[1]، وحينما تم ذلك طلبوا منه أن يرجع عنه، ويعلن إسلامه فرد عليهم علي ﷺ ردًّا عنيفًا وبين خطأهم في مسلكهم.

أصرَّ الخوارج على موقفهم فأرسل إليهم الخليفة علي ابن عمه عبدالله بن عباس لمناظرتهم، وقد أوردت المصادر الحوار الذي دار بين الخوارج وابن عباس. يذكر الإمام الذهبي النص المفصَّل لهذا الحوار بالقول: «فلبس ابن عباس حُلَّتين من أحسن الحُلَل، وكان جهيرًا جميلاً، قال: فأتيتُ القومَ، فلمّا رأوني، قالوا: مرحبًا يا ابن عباس وما هذه الحُلَّة؟ قلت: وما تُنكرون من ذلك؟ لقد رأيتُ على رسول الله ﷺ حُلَّة من أحسن الحُلَل، قال: ثم تلوتُ عليهم: ﴿قُل مَن حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[2] قالوا: فما جاء بك؟ قلت: جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ ولا أرى فيكم أحدًا منهم، ولأُبلغنَّكم ما قالوا، ولأبلغنَّهم ما تقولون، فما تنْقِمون من ابن عمِّ رسولِ الله ﷺ وصِهْره؟ فأقبل بعضُهم على بعضٍ، فقالوا: لا تكلّموه فإن الله يقول: ﴿بَل هُم قَومٌ خَصِمُونَ﴾[3]، وقال بعضهم: ما يمنعنا من كلامه، ابن عمِّ رسولِ الله ﷺ ويدعونا إلى كتاب الله. قال: فقالوا: نَنْقم عليه ثلاث خِلالٍ: إحداهنَّ أنّه حكّم الرّجال في دين الله، وما للرّجال ولِحُكْم الله، والثانية: أنّه قاتل فلم يَسْبِ ولم يَغْنَم، فإن كان قد حلَّ سَبْيهم، وإلاّ فلا، والثالثة: محا نفسه من «أمير المؤمنين»، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير المشركين. قلت: هل غير هذا؟ قالوا: حسبُنا هذا. قلت: أرأيتم أن خرجت لكم من كتاب الله وسُنَّة رسوله أَرَاجِعون أنتم؟ قالوا: وما يمنعنا، قلت: أمَّا قولكم إنَّه حَكَّمَ الرّجالَ في أمرِ الله، فإني سمعتُ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَحكُمُ بِهِ ذَوَا عَدلٍ مِنكُم﴾[4]، وذلك في ثَمَن صيد أرنب أو نحوه قيمته رُبْع دِرْهم فَوَّض الله الحكمَ فيه إلى الرجال، ولو شاء أن يحكُم لَحَكَم، وقال: ﴿وإن خِفتُم شِقَاقَ بَينِهِمَا فَابعَثُوا حَكَمًا مِن أَهلِهِ﴾[5]، أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قلتُ: وأمَّا قولكم: قاتَلَ فلم يَسْبِ، فإنَّه قاتل أمّكُمْ، لأنّ الله يقول: ﴿وأَزوَاجُهُ أُمَّهَتُهُم﴾[6]، فإن زعمتم أنّها ليست بأُمّكم فقد كفرتم، وإنْ زعمتم أنّها أمّكم فما حَلَّ سباؤها، فأنتم بين ضلالتين، أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قلتُ: وأمّا قولكم: إنّه محا اسمه من أمير المؤمنين، فإنِّي أنبِّئكم عن ذلك: أما تعلمون أن رسولَ الله ﷺ يوم الحُدَيْبية جرى الكتاب بينه وبين سُهَيْل بن عَمْرو، فقال: يا عليّ اكتب: هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله ﷺ فقالوا: لو نَعْلمُ أنّك رسولُ الله ﷺ ما قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال: اللَّهُمَّ إنَّكَ تعلم أنِّي رسولك، ثّم أخذ الصَّحيفةَ فمحاها بيده، ثمّ قال: يا عليّ اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله، فَوَالله ما أخرجه ذلك من النُّبوَّة، أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع ثُلُثُهُم، وانصرف ثُلُثُهُم، وقُتِلَ سائرُهُم على ضَلالةٍ[7].

لا تحتاج هذه المناظرة إلى كثير من التحليل؛ إذ تبدو أنها ليست مناظرة بين طرفين متكافئين، فقد كان المبرِّز فيها هو عبدالله بن عباس لأن كلامه مليء بالعلم والحجة والبرهان الساطع المليء بالاستدلالات القرآنية والسنة المطهرة، فعبدالله بن عباس صحابي تلقى العلم والحكمة من مصدر العلم الأول رسول الله ﷺ، أما الخوارج فكانت معرفتهم بالشرع ضئيلة، فلم يكن فيهم من له سابقة في الدين أو من له صحبة؛ حيث قال لهم ابن عباس: «جئتكم من عند صحابة رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد»، بل لم يكن فيهم «أحد من الفقهاء، لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب أبي موسى ولا أصحاب علي ولا أصحاب عائشة ولا أصحاب أبي الدرداء ولا أصحاب سلمان ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر»[8].

هكذا أسكتهم ابن عباس بالحجة البالغة وهم قوم ليس لديهم علم بأحكام الشريعة، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: إن أصل الضلال راجع إلى

(1) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص317.
(2) سورة الأعراف، آية 32.
(3) سورة الزخرف، آية 58.
(4) سورة المائدة، آية 95.
(5) سورة النساء، آية 35.
(6) سورة الأحزاب، آية 6.
(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص23-24.
(8) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج4، ص156.

«الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ العلم»[1].

اعتزاله السياسة في عهد علي

بعد أن رجع ابن عباس من مهمته في مناظرة الخوارج، رجع معه جزء منهم، وبقي كثير منهم على غيهم ولم يعودوا إلى جادة الصواب، فقرر الخليفة تجريد الجيوش لقتالهم في «النهروان»[2]، عند ذلك أدرك ابن عباس استحالة استقامة الأمر في عهد علي وأيقن استحالة جمع الناس حوله ورأى بعينه تنافر قلوب جماعته، فقرر اعتزال الحياة السياسية حيث تشير بعض المصادر إلى أنه غادر البصرة ورحل إلى مكة واعتزل الأحداث السياسية في عهد علي وانكب على دراسة العلوم الشرعية[3].

كان ابن عباس من أشد المناصرين للخليفة علي ومن أخلص أتباعه في الجمل وصفين مقاتلاً، وعلى البصرة واليًا، وأمام الخوارج مناظرًا، وللخليفة علي مستشارًا ناصحًا، ولكن ابن عباس كان في التفسير والعلوم الشرعية بحرًا وفي الوقت ذاته ينظر إلى السياسة بعين الواقع وبالعقل وليس بالعاطفة؛ فأيقن أن سير الأحداث السياسية ينبئ بأن موقف علي بين جماعته غير مستقر، ووقف على عدم صدق من هم حوله من الناس وشاهد انقسام المسلمين بين علي ومعاوية وانقسام أتباع علي على أنفسهم، فأدرك ألا جدوى من الاستمرار في مثل هذه الأجواء فقرر الرحيل إلى مكة.

إضافة إلى ما سبق فإن المصادر تورد أمورًا أُخرى توضح اعتزاله ومن هذه الأسباب قول البعض أن ابن عباس بالغ في الإسراف من بيت المال في البصرة مسوغًا ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾[4]، ولما وصل هذا الخبر إلى الخليفة علي أرسل إلى ابن عباس يعاتبه ويحاسبه على هذا الإسراف وجرت بينهما مراسلات[5]، بين فيها ابن عباس أن هذا الخبر باطلٌ وأنَّه وشاية ليس لها أصل من الصحة، وأن ما أخذه من بيت المال هو أقل مما يستحق وأن هذه أساطير لا صحة لها[6].

وبالبحث في المصادر عثر الباحث على ما يفيد بأن مصدر هذه الأخبار يعود إلى أبي الأسود الدؤلي[7]، الذي كان ابن عباس قد عينه على الصلاة في البصرة، وعين زياد بن أبيه[8] على الخراج في ذات المدينة[9] فحدث بين أبي الأسود الدؤلي وزياد خلاف وصل إلى حد الشتائم في الوقت الذي كان فيه ابن عباس خارج البصرة يؤدي مناسك الحج، فلما عاد إلى البصرة اشتكى زياد إليه مما تعرض له من شتائم على يد أبي الأسود الدؤلي[10] فأرسل ابن عباس إلى الأخير وطلبه وقرَّعه ووبَّخهُ وقال له: «يا أبا الأسود لو كنت من البهائم كنت جملاً، ولو كنت له راعيًا ما بلغت به المرعى، ولا أحسنت مهنته في المشتى»[11]. فغضب أبو الأسود الذي شعر بأن ابن عباس أغلظ عليه بالقول وأنه مال مع زياد وسانده، فبدأ أبو الأسود يرسل الرسائل من البصرة إلى الخليفة علي في الكوفة

(1) الشاطبي، الاعتصام، ص88.
(2) عن مُجريات معركة النهروان ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج3، ص297-299.
(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص143؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ص132؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص164؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص386.
(4) سورة الأنفال، آية 41.
(5) البلاذري، أنساب الأشراف، ج2، ص397.
(6) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص330.
(7) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان، بصري المولد والنشأة، يُعد من سادات التابعين وأعيانهم، صحب علي بن أبي طالب ﷺ وشهد معه موقعة صفين، وهو أول من وضع النحو، قيل إنه توفي بالطاعون سنة 69هـ. ينظر ترجمته عند: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص535-539.
(8) زياد بن أبيه: ولد سنة 1هـ/ 622م، وأسلم في عهد أبي بكر الصديق، وعينه أبو موسى الأشعري كاتبًا له في ولاية البصرة عندما كان واليًا عليها. بدأ زياد حياته السياسية بمشايعة الإمام علي ﷺ فولاه على بلاد فارس، وبعد وفاة الإمام علي ترك جماعته وصار من أنصار معاوية وأصبح واليًا على البصرة في العهد الأموي الجديد وضم إليه معاوية ولاية الكوفة. عُرف زياد بالدهاء -حتى قيل إنه من دُهاة العرب- واشتهر بالخطابة، ولكنه كان سفاكًا للدماء شديدًا على شيعة الإمام علي. وأم زياد هي سُمية جارية الحارث بن كلدة الثقفي، أما أبوه فقيل إنه عبيد الرومي غلام الحارث، وقيل إنه أبو سفيان ادعاه أنه ابنه؛ ولذلك يُقال زياد بن أبيه، ويُكنى بأبي المغيرة. توفي زياد سنة 53هـ بمرض الطاعون. ينظر ترجمته في: الدينوري، الأخبار الطوال، ص219-220؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص10-13.
(9) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص238-239.
(10) المرجع السابق، ج4، ص238.
(11) البلاذري، أنساب الأشراف، ج2، ص396.

وفيها الوشايات ضد ابن عباس ويذكر فيها أن ابن عباس أخذ أموال بيت المال ظلمًا ولمَّا تحقق الخليفة علي من الأمر وعرف أنه وشاية أرسل إلى ابن عباس طالبًا منه العودة إلى البصرة[1].

يرى الباحث أن هذه الرواية هي الأقرب إلى المنطق والسبب الحقيقي لاعتزال ابن عباس للسياسة وذهابه إلى مكة، وتتلخص في أن ابن عباس كتب إلى الخليفة علي معتذرًا عن الاستمرار في عمله واليًا على البصرة بالقول: «والله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها ومخبئها، وبطلاع ما على ظهرها أحبُّ إليَّ من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأُمة لأنال بذلك الملك أو الإمارة»[2].

إن مثل هذا القول يمكن أن يصدر عن حبر هذه الأُمة وترجمان القرآن وهو أكثر الناس تفقهًا في الدين ومن أعلم الناس بالحلال والحرام، ولذا فإن الباحث يرى أن هذا هو السبب الأهم في اعتزال ابن عباس للسياسة في عهد الخليفة علي.

خرج ابن عباس من العراق المضطرب المليء بالقلاقل منذ الجمل وصفين والنهروان إلى مكة الوادعة الهادئة ونأى بنفسه عما يجري من أحداث، وفي مكة بلغه خبر استشهاد الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ على يد عبدالرحمن بن ملجم[3]، فحزن حزنًا شديدًا، وبعد ذلك بايع أهل الكوفة الحسن بن علي -رضي الله عنهما- خليفة للمسلمين[4]، وما لبث الحسن أن تنازل عن الخلافة، وقد وصفت بعض المصادر الحسن ﷺ بأنه كان: «للحرب والقتال كارهًا وبالعلم والتعبد مشغفًا»[5]؛ لأنه رأى أن أصحابه الذين بايعوه بالخلافة قد خذلوا أباه من قبل. كما أنه أراد أن يحقن دماء المسلمين[6]، ويُحافظ على وحدتهم فتنازل لمعاوية سنة 41هـ/ 661م وسُمي هذا العام بعام الجماعة[7]. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن ابني هذا لسيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»[8].

موقفه من خلافة معاوية

كانت العلاقة بين العباس بن عبدالمطلب وأبي سُفيان طيبة، فقد كانا صديقين في الجاهلية[9]، وعندما جاء الإسلام كان للعباس دورٌ رئيسٌ في إسلام أبي سُفيان، حيث قال العباس للرسول ﷺ: «إن أبا سُفيان رجل يُحب الفخر على قريش فاجعل له شيئًا يعرف به»[10]، فسمع الرسول ﷺ قول العباس وقال: «من دخل دار أبي سُفيان فهو آمن»[11].

عندما بويع علي بالخلافة بعد استشهاد عثمان ﷺ بدأ علي نشاطه الإداري بعزل ولاة عثمان من بني أُمية وكان من أبرز هؤلاء الولاة هو معاوية ﷺ في الشام فرفض معاوية قرار العزل كما رفض بيعة علي بالخلافة واستقل بإدارة الشام وزاد معاوية في ردة فعله على قرار العزل واتهم الخليفة بالاشتراك في دم عثمان من خلال عدم تسليمه قتلة عثمان، ووقف خطيبًا في الوفد الذي بعثه علي يدعوه إلى الطاعة، فقال معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا ومزّق جماعتنا، وآوى إلى ثأرنا وقتلنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة»[12].

لقد كان عبدالله بن عباس رجلاً عالمًا فطنًا

(1) ابن أعثم، الفتوح، ج2، ص240؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ص132.
(2) البلاذري، أنساب الأشراف، ج2، ص298؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج16، ص171.
(3) عبدالرحمن بن ملجم المرادي التدؤلي الحميري، من الفرسان الأشداء، أدرك الجاهلية، ولما أسلم عُرف عنه أنه كان من القراء وأهل العبادة. تفقه في الدين حتى صار من أهل الفقه، ثم شارك في الفتوحات الإسلامية فشهد فتح مصر وسكنها، وكان زعيم بني تدؤل، قُتل سنة 40هـ/ 660م بعد ثلاثة أيام من قتله للإمام علي ﷺ فقد أقام الحسن بن علي ﷺ الحد عليه فقُطِعت يداه ورجلاه. ينظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام، ج3، ص339.
(4) للمزيد عن سيرة الحسن بن علي ﷺ ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ص383.
(5) النويري، نهاية الأرب، ج2، ص226.
(6) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج3، ص317؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ج5، ص237.
(7) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص276؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص196.
(8) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الفتن، رقم 6692.
(9) المكي، سمط النجوم العوالي، ج3، ص107.
(10) البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص449؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص54؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، 245.
(11) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص54.
(12) المصدر نفسه، ج5، ص6.

ذكيًّا مدركًا للأحداث السياسية الجارية في عهده، فقد نصح الخليفة علي بعدم عزل معاوية بالقول: «انزع من شئت واترك معاوية، فإن فيه جرأة وهو في أهل الشام يستمع منه، ولك الحجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاّه الشام»[1].

ونصحه في مناسبة أُخرى بالقول: «اكتب إلى معاوية فأقرّه على الشام وأطمعه فإنه سيطمع ويكفيك نفسه وناحيته فإذا بايع لك الناس أقررته أو عزلته»[2]، ولكن الخليفة علي رفض نصيحة ابن عباس وقال: «لا والله لا كان هذا أبدًا»[3]، ولما سأل الخليفة علي ابن عمه عبدالله بن عباس عن هذا الرأي قال ابن عباس: «لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا (عثمان) ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام وأهل العراق مع إني لا آمن عليك طلحة والزبير أن يكرا عليك»[4] لقد قصد ابن عباس بهذا الرأي أن بني أمية عموما قوم يحبون الفخر في الدنيا ويحبون السلطان، وأن تكون لهم مكانة بين الناس، وهذا ما عبر عنه العباس في قصة إسلام أبي سفيان.

لقد صدقت رؤية عبدالله بن عباس فقاد معاوية في الشام حركة معارضة وثورة عارمة ضد الخليفة علي، واستغل عاطفة عامة أهل الشام وجيش الناس وسخرهم مستغلاً الدعاية الدينية والسياسية مثيرًا ومحرضًا الناس على الثورة مطالبين بالثأر من قتلة الخليفة المظلوم[5].

وفي الوقت ذاته كانت هناك حركة أخرى تجري في المدينة المنورة يتزعمها طلحة والزبير تطالب بالثأر من قتلة عثمان ﷺ وقد انضم إلى هذه الحركة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها[6].

لقد كان بإمكان الخليفة علي ﷺ وأد حركات المعارضة هذه لو أخذ بنصيحة ابن عباس في التريث بعزل معاوية، وكان يمكن ألا تحدث موقعة الجمل وصفين التي كان لها أثر كبير وبالغ في تفكيك عُرى المجتمع الإسلامي وتفرقه وتشرذمه إلى فئات متناحرة ومختلفة على نفسها، لم يستطع الخليفة الجديد علي بن أبي طالب ﷺ أن يجمعها في صعيد واحد ويرأب صدع الأمة ويعيد إليها وحدتها.

لقد اعترف الخليفة علي بعبقرية ابن عباس -رضي الله عنهما- وبنبوغه في القراءة العميقة للأحداث وحُسن توقعه للمستقبل بالقول: «لله در ابن عباس لقد كان ينظر للغيب من ستر رقيق»[7].

وعندما تنازل الحسن وبويع لمعاوية في عام الجماعة سنة 41هـ/ 681م ذهب ابن عباس من الحجاز إلى دمشق فبايعه، وأكرم معاوية وفادته وعظم من قدره[8]، وقد أُعجب ابن عباس بالنهج السياسي الذي يسير عليه معاوية ﷺ فقال: «ما رأيت أخلق للملك من معاوية، إن كان ليرد الناس منه على أرجاء وادٍ رحب»[9].

بدأ ابن عباس مرحلة جديدة في حياته بعهد معاوية ففي سنة 49هـ/ 669م عندما بلغ ابن عباس ما يربو على الخمسين عامًا من العمر اشترك في محاولة فتح القسطنطينية مجاهدًا[10].

وعلى الرغم من مبايعة ابن عباس لمعاوية، إلا أنه كان له رأيه السياسي من بعض القضايا والمستجدات فعارض ورفض تحويل الخلافة إلى ملك دنيوي وحكم وراثي[11]. فعندما عين معاوية ابنه يزيدًا وليًّا لعهده أنكر ابن عباس هذا الأمر إنكارًا شديدًا؛ فقد روي عنه القول: «إن الله جل ثناؤه اختار محمدًا ﷺ فأشرف الناس من تشرف به وأولاهم بالأمر أخصهم به، وإنما على الأمة التسليم لنبيها»[12].

وعندما أدرك ابن عباس أنَّ الأمر واقع لا محالة

(1) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص197؛ بيضون، تكون الاتجاهات السياسية، ص121.
(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص260.
(3) المرجع السابق، ج9، ص260.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص197.
(5) الموضع السابق نفسه.
(6) اليافعي، مرآة الجنان، ج1، ص186؛ ابن قتيبة، المعارف، ص268.
(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، ص261.
(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص335، مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص54.
(9) البياسي، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، ج2، ص22.
(10) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص232؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص367؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص459؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص32.
(11) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص338؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص323؛ ابن الأثير، الكامل، ج4، ص14؛ مجهول، الإمامة والسياسة، ج1، ص241.
(12) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص338.

درس موقف الأُمة بعناية وقرأ حالها السياسي والاجتماعي فآثر مصلحتها ووحدتها ولما تسلم يزيد بن معاوية الحكم بايعه حيث طلب يزيد من والي المدينة الأموي أخذ البيعة له من الحسين وابن عمر وابن عباس وابن الزبير، فبايع ابن عباس ودخل في طاعته[1]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أمر الناس من حوله بالطاعة ولزوم جماعة المسلمين وقال لهم: «فالزموا مجالسكم وأعطوا طاعتكم وبيعتكم»[2]، وبقي ابن عباس ملتزمًا ببيعة يزيد ولم يخرج عليه[3].

يبدو للباحث أن علماء السياسة الشرعية قد تأثروا ومن الممكن القول إنهم أسسوا أفكارهم المرتبطة بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم في دائرة الإسلام -على ما يبدو- من مثل هذه المواقف لابن عباس، حيث يذكر أبو العثمان الصابوني أن أهل الحديث من السنة والجماعة يرون: «الصلوات خلف كل إمام مسلم برًّا كان أو فاجرًا ويرون الدعاء لهم في التوفيق والصلاح ولا يرون الخروج عليهم وإن رأوا منهم العدول عن العدل إلى الجور والحيف»[4]، وهذا التوجه يتفق عليه كل علماء أهل السنة والجماعة ما دام أن الأمر لم يصل إلى حد الكفر الصريح، والله تعالى أعلم.

وعزز هذا الرأي الإمام الطحاوي بقوله «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع عليهم طاعتنا ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة»[5]، ووصل الأمر عند الإمام النووي إلى أن الخروج على الحكام المسلمين «حرامٌ شرعًا بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين»[6]، في حين اشترط ابن حجر للخروج على الحاكم «أن يقع من السلطان الكفر الصريح»[7].

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص323؛ ابن الأثير، الكامل، ج4، ص14.
(2) خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ص147؛ النويري، نهاية الأرب، ج2، ص486؛ مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص122.
(3) خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ص148؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص363.
(4) الصابوني، عقيدة السلف، ص106.
(5) الطحاوي، العقيدة الطحاوية، ج2، ص540.
(6) النووي، شرح صحيح مسلم، ج12، ص229.
(7) العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج13، ص7.

موقفه من ثورة الحسين بن علي

هو الحسين بن علي بن أبي طالب، سبط الرسول الكريم ﷺ وريحانته، ولد في السنة الرابعة للهجرة بعد أخيه الحسن أشبه الناس بالرسول جدًّا، كان الرسول يحبه وكذلك كان يحبه أبو بكر وعمر وعثمان ويقدرون له قرابته من الرسول، قتله سنان بن أنس النخعي، ويقال: سنان بن أبي سنان النخعي، ويقال أيضًا: إن الذي قتله هو شمر بن ذي الجوشن، ويقال: إن عبيد الله بن زياد وجه إليه عمر بن سعد بن أبي وقاص فقتله وأهل بيته بالقرب من الكوفة عندما خرج إليها نزولاً عند رغبة أهل الكوفة سنة 61هـ/ 610م. وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ويقال: ست وخمسين.

كانت أُولى الحركات العلوية ضد الدولة الأموية هذه الحركة سنة (60هـ/ 609م)[8]، فخرج إلى مكة مُعلنًا عدم مبايعته ليزيد بن معاوية. لكن مُقامه بمكة لم يدم طويلاً، فقد تركها في ذي الحجة عام (60هـ/ 609م) عندما كاتبه العراقيون من أهل الكوفة، طالبين منه القدوم إليهم ومبايعته، وهناك الكثير من الصحابة ممن نصحوه بعدم الخروج، وحذروه من مغبة إقدامه على ذلك، وكان على رأس هؤلاء ابن عم أبيه عبدالله بن العباس إذ قال له: «لقد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبين لي ما أنت صانع، فقال له: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: فإني أعيذك بالله من ذلك، خبرني رحمك الله تسير إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم، فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم فإنما دعوك للحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغروك، ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك، فيكونوا أشد الناس عليك، فقال له الحسين: فإني أستخير الله وأنظر ما يكون، ثم كرر عليه ابن عباس النصح ثانية ملحًّا عليه في البقاء قائلاً له: يا ابن عم، إني أتصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم، ثم اقدم

(8) ينظر: ابن قتيبة، المعارف، ص123؛ ابن أعثم، الفتوح، ج3، ص72؛ البياسي، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، ج2، ص63

عليهم، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونًا وشعابًا، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت على عزلة، فتكتب إلى الناس، وتبث دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك من تحب في عافية. فقال له الحسين: يا ابن عم، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير، فقال له ابن عباس: فإن كنت سائرًا فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله إني لخائف أن تُقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه، ثم قال له ابن عباس: لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إيَّاه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك، والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس أطعتني لفعلت ذلك، ثم خرج من عنده ومرّ بعبدالله بن الزبير وقال له: قرّت عينك يا ابن الزبير، ثم قال له:

يا لك من قبرة بمعمرِ
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين خرج إلى العراق ويخليك والحجاز[1] وزاد ابن كثير «وصيادك اليوم قتل فابشري»[2]، وكانت النتيجة التي توقعها ابن عباس، فقد خذل العراقيون الحسين وقُتل في العاشر من مُحرم سنة 61هـ/ 680م[3].

بعد دراسة هذه الرواية نخلص إلى أن:

ابن عباس حذر الحسين من مغبة الذهاب إلى الكوفة مخافة أن يخذله أهلها، وبيّن له ما يجب أن يطلب من أهل الكوفة أن يعملوه قبل أن يذهب إليهم؛ بأن يثوروا على الدولة الأموية ويطردوا واليها عندهم، وعندما رأى أنه مصمم على رأيه نصحه بالتوجه إلى اليمن، لما له من مميزات تخصه وتخص أهله ولكن دون جدوى. هذه النصائح تنبئ عن عقلية ابن عباس التخطيطية، ويبدو أن العباسيين استفادوا بما فكر فيه جدهم (ابن عباس)، ومن ذلك أهمية سيطرة أهل العراق على إقليمهم وتحريره من سلطان بني أمية -وهذا ما قام به العباسيون مع أهل خراسان فيما بعد- ومن ذلك أيضًا تقييمه لأهل العراق من أنهم قوم لا يمكن الاعتماد عليهم بسبب غدرهم؛ لذلك لم يعتمدوا عليهم في تشكيل القاعدة الصلبة التي قامت عليها دعوتهم، كما بين أهمية أن يلتجئ صاحب الدعوة إلى المكان الذي تتوفر فيه شيعته -من جهة- وصفة الحصانة الطبيعية -من جهة أخرى- وذلك لأن قبضة السلطة الحاكمة تكون ضعيفة عليه، ومن ذلك جاء اختيار خراسان فيما بعد كمنطلق للثورة العباسية. وبين أيضًا أهمية أن يكون صاحب الدعوة بمعزل عن الناس، ومن هذا المعزل يقوم ببث دعاته.

موقف ابن عباس ونصائحه لم تكن اعتباطية، وإنما كانت نصائح مدروسة مستندة إلى الدلائل، وتنبع عن فهم لطبيعة الأطراف ذات العلاقة، وبناءً على ذلك يمكن القول إن ابن عباس كان لديه وعي وفهم سياسي لما كان يجري، وأن موقف ابن عباس لم يتعد حد النصح، وبما أنه رئيس العباسيين فموقفه يمثلهم جميعًا.

كما أن ميل العباسيين الفعلي كان مع أبناء عمهم العلويين، بالرغم من مبايعتهم للأمويين، ويدعم هذا الرأي مقولة ابن عباس عندما قام المختار الثقفي[4] بثورته ضد السلطة الأموية، والتي زعم أنها ثأرٌ لمقتل الحسين: «أنه أصاب بثأرنا وأدرك وغمنا»، فابن عباس علق على هذه الثورة الآمال الجسام بإعادة الخلافة إلى مسارها الطبيعي وهو الشورى وليس التوريث.

موقفه من ثورة ابن الزبير

ثار عبدالله بن الزبير[5] في مكة وعظم أمره بعد موت الخليفة يزيد في ربيع الأول سنة

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص178.
(2) الدينوري، الأخبار الطوال، ص253؛ المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص71.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص178.
(4) المختار بن أبي عبيد الثقفي، ذو رأي وفصاحة وشجاعة، قليل الدين، ادعى أن الوحي ينزل عليه، وأنه يعلم الغيب، أرسل إليه عبدالله بن الزبير جيشًا بقيادة أخيه مصعب لقتاله فقتله في رمضان سنة 67هـ. ينظر ترجمته في: البلاذري، أنساب الأشراف، ج6، ص375.
(5) هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، يُكنى أبو بكر، وأُمه أسماء بنت أبي بكر، وهو أول مولود في المدينة المنورة بعد الهجرة، روى عن أبيه وأبي بكر وعمر وعثمان، وشارك في حركة الفتوحات الإسلامية منذ معركة اليرموك، وغزو المغرب، قُتل في عهد عبدالملك بن مروان سنة 73هـ وهو ابن اثنين وسبعين عامًا. ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج3، ص905؛ ابن الأثير، أُسد الغابة، ج3، ص242-245.

64هـ/ 683م[1]، فدعا لنفسه بالخلافة في رجب عام 64هـ/ 683م[2]، ودخل في دعوته أهل الحجاز، ومصر، والعراق، والشام، والجزيرة، وخراسان[3].

وتمثل موقف ابن عباس من البيعة لابن الزبير في اتفاقه مع ابن الحنفية على عدم المبايعة، فقد قالا له: «لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد، ويتفق الناس»[4]، وكان ابن الزبير قد دعا ابن عباس لمبايعته أثناء خلافة يزيد، ولكنه رفض، فكتب إليه يزيد يشكر له طاعته وعدم اتباعه لابن الزبير، وطلب منه أن يكون عونًا له على ابن الزبير، فكتب إليه ابن عباس قائلاً: «فقد بلغني كتابك يذكر دعاء ابن الزبير إياي إلى نفسه وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته، فإن يكُ ذلك كما بلغك، فلستُ حمدك أردت ولا ودك، ولكن الله بالذي أنوي عليم، وسألتني أن أحث الناس عليك وأخذلهم عن ابن الزبير، فلا، ولا سرورًا، ولا حبورًا، وأنت قتلت الحسين بن علي»[5].

من هنا يتبين أنه رفض وضع يده بيد يزيد متذرعًا بما فعله بالحسين وآله ورجاله على ثرى كربلاء، ولو أن ابن عباس لبَّى طلب يزيد لكان موضعًا للمؤاخذة واللوم، كما أنه رفض وضع يده بيد ابن الزبير ومبايعته ضد يزيد، وفي هذا ما يُعبر عن الفكر الذي كان يتبناه، صحيح أن ابن عباس ساند عليًّا مثلما ساند والده، ولكنه عندما رأى عدم جدّية السير في هذا الاتجاه، فضل الابتعاد عن الصراعات، حفاظًا على وحدة المسلمين، وحقنًا لدمائهم.

وبالرجوع إلى موقف ابن الزبير من رد ابن عباس عليه، نجد أن الأول غضب من رد الثاني، وذكر ابن خلكان أنه «أساء جوارهم، وحصرهم، وآذاهم»[6]، لكن ابن عباس لم يغير موقفه، بل أخذ يثني الناس عن ابن الزبير[7]، وعندما رأى ابن الزبير ذلك نفاه وأولاده إلى الطائف[8]، حيث أقام بها مكبًّا على وعظ الناس بالمساجد، وبقي على بيعته ليزيد، حتى توفي ابن عباس سنة 68هـ/ 688م[9].

وتذكر معظم المصادر أنه أوصى ابنه عليًّا قبل وفاته «بإتيان الشام والتنحي عن سلطان ابن الزبير إلى سلطان عبدالملك»[10]، ويورد ابن الأثير أنه قال: «لأن يربني بنو عمي -يقصد بني أمية- أحبُّ إليَّ من أن يربني رجل من بني أسد»[11]، يقصد بذلك عبدالله بن الزبير. وهنا قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن مثل هذا القول يمكن أن يصنف على أنه من باب العصبية، ولكني أرى أن ابن عباس بفكره الثاقب أدرك أن المستقبل لبني أمية وهم من وجهة نظره الأخلق للملك وأن مستقبل أبنائه سيكون معهم أفضل.

ويورد بعض المؤرخين أن سبب الخلاف بين ابن عباس وابن الزبير هو أن الأخير قام بإخراج ابن الحنفية من مكة فغضب ابن عباس لذلك، فأوصى ابنه عليًّا بترك الحجاز والتوجه إلى الشام، والميل مع سلطان عبدالملك ضد ابن الزبير[12]، وبغض النظر عن كون هذا السبب حقيقيًّا أو لا، فإن ما حدث بعد ذلك يتفق مع مضمون تلك الوصية، فعندما قدم عبدالملك بن مروان حاجًّا سنة 75هـ/ 694م، لقيه علي بن عبدالله فذم إليه ابن الزبير، وأعلمه ما كان أبوه وأهل بيته لقوا منه لامتناعهم من بيعته، وإن أباه أوصاه بترك الحجاز والتوجه نحو الشام، فأحسن عبدالملك إجابته، وحمل عياله إلى الشام[13]، وأنزله دارًا بدمشق، ولم يزل يجري عليه أيامه كلها.

وفاته

لقد كان عبدالله بن الزبير قاسيًا على ابن عباس عندما طرده من مكة وأخرجه رُغمًا عنه إلى الطائف فعاش فيها واعظًا ومُعلمًا للناس أحكام الشرع مُفسرًا لهم آي الذكر الحكيم، فكان كتاب الله خير أنيس لابن عباس ﷺ، وقد فقد

(1) خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ص160، 157.
(2) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص282؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، 212.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص172.
(4) المصدر نفسه، ج4، ص172.
(5) مصدر الكلمة الحبْر، وهو السرور، والحبور النعمة وسعة العيش. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص85.
(6) البلاذري، أنساب الأشراف، ج5، ص196؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص172.
(7) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص262؛ المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص96.
(8) ابن قتيبة، المعارف، ص123.
(9) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص70.
(10) ابن الأثير، الكامل، ج4، ص254.
(11) البلاذري، أنساب الأشراف، ج4، ص70.
(12) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص274.
(13) المصدر نفسه، ج2، ص274.

البصر في آخر عمره، وبقي على هذا الحال بعيدًا عن الصراعات السياسية بين ابن الزبير والدولة الأموية، حتى وافته المنية سنة 68هـ في الطائف، وصلى عليه محمد بن علي (ابن الحنفية) الذي قال يوم وفاة ابن عباس: «مات اليوم حبر هذه الأُمة» وكان عمره عندما مات اثنين وسبعين عامًا[1].

ولما وصل خبر موت ابن عباس إلى جابر بن عبدالله صفق بإحدى يديه على الأُخرى وقال: «مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أُصيبت هذه الأُمة مصيبة لا تُرتق» وكانت آخر وصايا ابن عباس لرجل قال له أوصني، فقال ابن عباس: «أوصيك بتوحيد الله، والعمل له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن كل خير أنت آتيه بعد ذلك مقبول وإلى الله مرفوع.. إنك لا تزداد من يومك إلا قربًا، فصل صلاة مودع، وأصبح في الدنيا كأنك غريب مُسافر فإنك من أهل القبور، وابكِ على ذنبك، وتُب من خطيئتك، ولتكن الدنيا أهون عليك من شسع نعلك، ولن ينفعك إلا عملك»[2].

الخاتمة والنتائج

جاء هذا البحث لتسليط الضوء على موقف عبدالله بن عباس من الأحداث السياسية التي عاصرها، والتي كانت أحداثا عاصفة نتجت عن فتنة عاتية. وقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1. تلقى ابن عباس علومه الشرعية من معلمه الأول سيد الخلق وأشرف المرسلين رسولنا محمد ﷺ حيث صحبه وتتلمذ على يديه ما يقرب من ثلاث سنوات وكان العلم الذي حازه ابن عباس من نتاج بركة دعوة النبي ﷺ له بالحكمة والتأويل حتى أصبح يُلقب بالحبر.
2. حظي ابن عباس باحترام الخلفاء الراشدين جميعًا فقد كان مُستشارًا في شؤون القضاء والإفتاء في عهد أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم جميعًا- إذ كان منذ حداثة سنه نابغًا، فكان يجلس مع كبار الصحابة ومشايخهم السابقين الأولين الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر.
3. شارك ابن عباس في الجهاد وحركة الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام؛ فشارك في فتح شمال أفريقيا في عهد الخليفة عثمان سنة 27هـ/ 647م بقيادة ابن أبي السرح، كما شارك في مُحاولة فتح القسطنطينية سنة 49هـ/ 669م في عهد مُعاوية بن أبي سُفيان رضي الله عنهما.
4. لقد كان توفيق الله جل جلاله حليفًا لابن عباس ﷺ في سيرته الشخصية، إذ لم توجه إليه أصابع الاتهام بالتواطؤ أو الحياد السلبي من حادثة مقتل عثمان بن عفان ﷺ فقد كان أثناءها يقود قافلة الحج التي خرجت من المدينة بتكليف من الخليفة عثمان.
5. نتج عما سبق أن ابن عباس كان على علاقة طيبة مع جميع الأطراف على اختلاف توجهاتهم من أحداث الفتنة، بدءًا من الخليفة عثمان، فكان يزور السيدة عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- ويتردد عليها، وفي الوقت ذاته كان يُحاور طلحة والزبير -رضي الله عنهما- في موقعة الجمل، وكان مُناصرًا ومؤازرًا لأمير المؤمنين علي ﷺ قائدًا بجيشه ومُستشارًا وناطقًا باسمه أمام الخوارج.
7. فرض ابن عباس احترامه وتقديره على جميع الصحابة في زمانه وذلك بسبب قرابته من رسول الله ﷺ وبما أعطاه الله من علم ونبوغ.
8. تمتع ابن عباس بمجموعة من الصفات المهمة لرجل السياسية تتمثل في التفكير والتحليل السليم الذي مكَّنه من قراءة الواقع قراءة صحيحة سليمة، فكان يفهم الأمور فهمًا عميقًا وهذا يظهر جليًّا واضحًا من نصائحه التي أسداها إلى الخليفة علي رضي الله عنهما.
9. كان ابن عباس مدرسة في فقه الواقع، فقد تعامل مع الدولة الأموية كمرحلة حتمية واقعية في حياة الأُمة فبايع مُعاوية واشترك معه في مُحاولة فتح القسطنطينية في الجيش الذي أرسله مُعاوية بقيادة ابنه يزيد الذي يصغُر ابن عباس علمًا وفضلاً في الصحبة وعمرًا، ولكنه في الوقت ذاته اعترض على تحويل الخلافة إلى مُلك وراثي، فكان له موقفه السياسي، ولما أيقن ابن عباس أن تولية يزيد واقعة لا محالة بايعه، ولم يشق عصا الطاعة، فرضي ببيعة يزيد وبقي عليها ولم يخلعها من عنقه لأنه رأى فيها مصلحة للأُمة وحقنًا لدماء المسلمين.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج3، ص1743.
(2) المصدر نفسه، ج3، ص1743، 1741.

10. أشفق ابن عباس على ابن عمه الحسين فنصحه بعدم الخروج لأنه عرف أهل الكوفة وخبرهم عن قُرب وعاش بين ظهرانيهم ردحًا من الزمن، وكان يستوعب الجغرافيا السياسية والاجتماعية والطبيعية في عصره عندما نصح الحسين بالتوجه إلى اليمن.
11. كان لابن عباس موقفه الصارم من ابن الزبير، فكيف يُبايعه وقد بايع يزيد من قبل؟ وبذلك يمكن القول بأنه أسس بسلوكه هذا قواعد عملية في السياسة الشرعية في تنظيم العلاقة بين ولي الأمر والعامة، وقد دفع ثمنًا باهظًا بسبب مُعارضته لابن الزبير وثباته على موقفه، فتوفي ﷺ منفيًّا في الطائف.
12. قرأ ابن عباس الواقع قراءة سليمة، وفي الوقت ذاته كان يستشرف المستقبل، ويتضح ذلك في نصحه لأبنائه بأن يكونوا مع المستقبل لا أن يكونوا مع الماضي؛ لأن ابن عباس رأى في الحركات العلوية وحركات الأمصار -كحركة ابن الزبير- جزءًا من الماضي ليس إلا، فرسم لأبنائه طريق المستقبل، وقد استفادوا من تخطيطه فأقاموا دولتهم (الدولة العباسية) التي استمرت ما يربو على خمسة قرون.
13. تمتع ابن عباس بفكر ثاقب في السياسة والحرب والسلم، وهذا أعطاه القدرة على اتخاذ القرارات الحكيمة التي تناسب الواقع، والتخطيط للمستقبل فهو رجل قد أدبته الحكمة، وأحكمته التجارب.

التوصيات

بعد أن منّ الله على الباحث بإكمال هذه الدراسة فإنه يرى ضرورة إعادة قراءة تاريخ صدر الإسلام، لمعرفة مواقف الصحابة، ومن هنا فإنني أناشد طلبة الدراسات العليا والأولية ممن يعملون في مجال التاريخ أن يعيشوا مع تاريخ الإسلام، وأن يلتهموا المعرفة التهاما، بل أن يحبوها ويتلذذوا بمعرفتها، والواقع أن هذا لا ينطبق على طلبة التاريخ فحسب، بل على كل مؤرخ؛ سواء من حصل على الشهادة الأكاديمية حديثا أو أولئك الذين مضى على حصولهم عليها عقود.

والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله. تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل. 1967م. شرح نهج البلاغة. الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر.

ابن أعثم، أحمد بن أعثم. 1986م. الفتوح. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري. 1970م. الكامل في التاريخ. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري. تحقيق: البنا، محمد إبراهيم، وعاشور، محمد أحمد، وفايد، محمود عبدالوهاب. 1970م. أُسد الغابة في معرفة الصحابة. بدون رقم الطبعة، دار الشعب، القاهرة، مصر.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي. 1989م. صفة الصفوة. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي. تحقيق: عطا، محمد عبدالقادر، وعطا، مصطفى عبدالقادر. 1992م. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن الصلاح، أبو عمرو تقي الدين عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري. 1418هـ/ 1997م. علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح. الطبعة الخامسة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.

ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا. د.ت. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن الكلبي، هشام بن محمد. تحقيق: حسن، ناجي. 1986م. جمهرة النسب. الطبعة الأولى، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، لبنان.

ابن حزم، أبو محمَّد علي بن أحمد الأندلسي الظاهري. 1983م. الفصل في الملل والنحل. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ابن حزم، أبو محمَّد علي بن أحمد الأندلسي الظاهري. تحقيق: هارون، عبدالسلام. 1983م. جمهرة أنساب العرب. الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

ابن خلكان، أحمد بن محمد. تحقيق: عباس، إحسان. 1970م. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. دون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري. تحقيق: عطا، محمد عبدالقادر. 1990م. الطبقات الكبرى. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي. 1989م. العقد الفريد. الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد النمري القرطبي الأندلسي. تحقيق: البجاوي، علي محمد. 1992م. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، لبنان.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري. تحقيق: عكاشة، ثروت. د.ت. المعارف. الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، مصر.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. 1993م. البداية والنهاية. الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. تحقيق: حيدر، عامر أحمد. 2003م. لسان العرب. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي. 1997م. المختصر في أخبار البشر. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

أبو نعيم، أحمد بن عبدالله بن مهران الأصبهاني. 1988م. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. تصحيح: ريتر، هلموت. 1400هـ/ 1980م. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. الطبعة الثالثة، نشر دار فرانز شتايز، مدينة فيسبادن، ألمانيا.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي. 1993م. صحيح البخاري. بدون رقم الطبعة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر.

البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سُفيان. تحقيق: العمري، أكرم ضياء. 1981م. المعرفة والتاريخ. الطبعة الثانية، الرسالة، بيروت، لبنان.

البلاذري، أحمد بن يحيى. تحقيق: زكّار، سهيل، والزركلي، رياض. 1996م. أنساب الأشراف. الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، لبنان.

البياسي، يوسف بن محمد. تحقيق: محمود، جاسر أحمد. 1987م. الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

بيضون، إبراهيم. 1986م. تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبدالملك. بدون رقم الطبعة، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، بدون بلد النشر.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى. د.ت. المدخل إلى السنن الكبرى. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي. تحقيق: شاكر، أحمد محمد. د.ت. الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. د.ت. تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة 463هـ. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

خليفة، أبو عمر بن خياط الليثي العصفري. 1995م. تاريخ خليفة بن خياط. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الدخيل، حمد بن ناصر. 1993م. من أعلام الخلافة العباسية. الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الدينوري، أحمد بن داود. تحقيق: طاهر، عبدالمنعم. د.ت. الأخبار الطوال. بدون رقم الطبعة، مكتبة المثنى، بغداد، العراق.

الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان. تحقيق: الصاغرجي، مأمون. إشراف: الأرنؤوط، شعيب. 1402هـ/ 1982م. سير أعلام النبلاء. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان. تحقيق: تدمري، عمر عبدالسلام. 1407هـ/ 1989م. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

الزبيري، مصعب بن عبدالله. د.ت. نسب قريش. الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، مصر.

الزركلي، خير الدين. 1989م. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال من العرب والمستعربين والمستشرقين. الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن عبدالله. 2005م. تذكرة الخواصّ المعروف بتذكرة خواص الأُمة في خصائص الأئمة. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

السفاريني، شمس الدين محمد بن أحمد. 1405هـ/ 1985م. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية. الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، مكتبة أُسامة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

السهمي، أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجاني. مراقبة: خان، محمد عبدالمعيد. 1407هـ/ 1987م. تاريخ جرجان. الطبعة الرابعة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر الشافعي. تحقيق: عبدالحميد، محيي الدين. د.ت. تاريخ الخلفاء. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي. تحقيق: عبدالشافي، أحمد حيدر. 1402هـ. الاعتصام. الطبعة الحادية عشرة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

شفيع، محمد. د.ت. مقام الصحابة وعلم التاريخ. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر، القاهرة، مصر.

الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم. تحقيق: كيلاني، محمد سيد. 1975م. الملل والنحل. الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الصابوني، أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن. تحقيق: الجديع، ناصر. د.ت. عقيدة السلف وأصحاب الحديث أو الرسالة في اعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث الأئمة. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر، بيروت، لبنان.

صبرة، عفاف سيد، والحناوي، مصطفى. 2008م. دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين. الطبعة الخامسة، مكتبة الرشد، بيروت، لبنان.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله. 1991م. الوافي بالوفيات. الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، لبنان.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي. 1405هـ. المعجم الكبير. الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الطبري، محمد بن جرير. تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل. 1967م. تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك. الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي. د.ت. العقيدة الطحاوية. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الشافعي. تحقيق: التركي، عبدالله بن عبدالمحسن. 1429هـ/ 2008م. الإصابة في تمييز الصحابة. الطبعة الأولى، دار هجر، القاهرة، مصر.

مجهول. تحقيق: الدوري، عبدالعزيز، والمطلبي، عبدالجبّار. 1971م. أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده. بدون رقم الطبعة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

مجهول. 1980م. الإمامة والسياسة. بدون رقم الطبعة، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان.

المسعودي، علي بن الحسين. 1981م. التنبيه والإشراف. بدون رقم الطبعة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

المسعودي، علي بن الحسين. 1986م. مروج الذهب ومعادن الجوهر. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مسكويه، أحمد بن محمد. تحقيق: حسن، سيد كسروي. 2003م. تجارب الأمم وتعاقب الهمم. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري. تحقيق: عبدالباقي، محمد فؤاد. 1955م. صحيح مسلم. بدون رقم الطبعة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر.

المقدسي، أحمد بن سهل. د.ت. البدء والتاريخ. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

المقريزي، أحمد بن علي. تحقيق: مؤنس، حسين. د.ت. النزاع والتخاصم فيما بين بني أُمية وبني هاشم. بدون رقم الطبعة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

المكي، عبدالملك بن حسين. تحقيق: عبدالموجود، عادل بن أحمد، ومعوَّض، علي محمد. 1998م. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. 1392هـ. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المعروف بشرح صحيح مسلم. الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. 1996م. تهذيب الأسماء واللغات. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

النويري، أحمد بن عبدالوهاب. تحقيق: فتح الله، محمد رفعت. 1984م. نهاية الأرب في فنون الأدب «المجلد العشرون». بدون رقم الطبعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

اليافعي، عبدالله بن أسعد. د.ت. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي. 1984م. معجم البلدان. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي. تحقيق: حسن، ناجي. 1986م. المقتضب من كتاب جمهرة النسب. الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان.

اليعقوبي، أحمد بن يعقوب. د.ت. تاريخ اليعقوبي. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

اليعقوبي، أحمد بن يعقوب. 1988م. البلدان. الطبعة الأولى، دارإحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

Historical Reading of the Political Role of the Companion Abdullah bin Abbas

Fathy Y. Alshawawrah

Department of Social Studies, Collegeg of Arts, King Faisal University,
AlAhsaa, Saudia Arabia

ABSTRACT

This study tackles politicaly the biography of Abdullah bin Abbas, A companion of prophet Mohammad (PBUH), and his role in the incedents of his era. The study aimed to analyse and understand his attitude towards the parties involved in the political incidents during the reign of the caliph Ali. The work also analyse his attitude twards the Umayyad state following its establishment and the way he interacted with it and with its political counterparts.

The study found that Ibn Abass has several important political characteristics such as thinking and good analysis that allowed him to acquire deep understanding of reality. As a prove of that,his way of dealing with the Umayyad state as a realistic phase of the nation, so he pledged allegiance to Muawiyah and joined his military campigne to concor Conestatntinople under the the command of his son Yazid. However, he objected the idea of transfereing cliphate into inherited monarchy. Meanwhile, when he was certain that Yazid will be inaugurated he pledged allegiance to him because he concluded that this will be on beneficial to the nation and should save muslim lives. Furthermore, he was compassionate to Al-Hussien and advised him to go to Yemen not Kufa. He also had a strict attitude to Ibn Alzubai, to whom he refused to pledge allegiance after doing so to Yazid. As a result of these actions, he died in exile in Taief.

Key Words: Aljamal battle, Khawarij dissidents, Siffin battle.